

- دلائل الماء -

لا يخفى ان الماء من العناصر التي لا يتم بدونها عمران ولا يستغني عنها نبات ولا حيوان ولذلك كان الناس من اقدم زمن يتخيرون النزول في جوار الانهار والمناهل يضربون بجانبها خيامهم او يبنون حولها مدنهم وقراهم وكل موضع لا ماء به احتالوا بجر الماء اليه من الاماكن القريبة او استنبطوه من جوف الارض اذا آنسوا وجوده بظهور شيء من علاماته وربما اقتضروا على حفر الآبار يستقبونه منها على ما في ذلك من المشقة والكلفة اما الاستدلال على وجود الماء فكانوا يتخذون له بعض العلامات الظاهرة على وجه الارض مما يشعر بقرب الرطوبة من سطحها وقد توسعوا في البحث عن هذه العلامات وتميز صادقها من كاذبها حتى صيروها علماً قائماً بنفسه سمته العرب بعلم الريافة وهي كلمة مولدة اشتقوها من الريف وهو ما كان من الارض فيه خضرة ومياه . وقد ذكر هذا العلم صاحب كشف الظنون وقال في تعريفه هو استنباط الماء من الارض بواسطة بعض الأمارات الدالة على وجوده فيعرف بعده وقربه بشم التراب او بالنباتات فيه او بحركة حيوان وجد فيه فلا بد لصاحبه من حس كامل وتحليل شامل وهو من فروع الفراسة من جهة معرفة وجود الماء والهندسة من جهة الحفر واخراجه . انتهى كلامه . الا انه لم يذكر واضعه ولا زمن وضعه ولا احداً ممن ألف فيه . والذي يتبين من نصوص اللغة ان العرب الاولين لم يكونوا بمعزل عن هذا العلم وكانوا يسمون صاحبه القنقن بالكسر

والقنّاقين بالضمّ قال ابن الاعرابي هو البصير بحفر المياه واستخراجها وقال غيره هو البصير بالماء في حفر القني والظاهر ان هذا التفسير الثاني مبني على اشتقاق اللفظة . وقال ابن بري القنّين والقنّاقين المهندس الذي يعرف الماء تحت الارض وهو معرب من قولهم بالفارسية كنّ كنّ اي احفر احفر وتقل صاحب اللسان في مادة (ح زي) استعمال العراف بهذا المعنى وفسره بالذي يشم الارض فيعرف مواقع المياه

وقد بحث علماء اوربا في هذا العلم واستقروا دلائله وكتبوا فيه والظاهر انه كان معروفاً عندهم من عهد قديم الا ان المتقدمين من اصحابه كانوا يموهونه بضرب من الشعوذة فيدعون انهم يعرفون وجود الماء في باطن الارض بواسطة ما يسمونه بمخصرة الحزروهي قضيب يقطعونه من شجرة من البندق او التفاح او غيرها يحملها اصحاب الريافة وحازروالبخت ونباشو الكنوز فاذا دنوا بها من موضع الماء او الكنز دارت في ايديهم فاستدلوا بها على مكانه حتى اذا بلغوا ان يصير الماء او الكنز تحت اقدامهم انتصبت واقفة فيحتفرون هناك فلا يخطئونه . وينبغي ان يكون القضيب الذي تؤخذ منه فرخ سنته ويقطع قبل نصف الليل ثم يُبلى عليه شيء من الاقاويل الروحانية والرقي السحرية الى ما اشبه ذلك من الخزعبلات . قيل واستخدم هذه المخصرة في الاعمال السحرية قديماً جداً ومنها الغصي التي كانت تستعملها سحرة فرعون وما يروى من مثلها عن سحرة اليونان وقد انتقلت من امة الى اخرى في خلال العصور المتقدمة حتى افضت الى عراني اوربا الا انهم لم يتجاوزوا بها مثل ما ذكر من كشف الخفايا ومعرفة

اصحاب الجرائم ولها عندهم احاديث عجيبية لا تزال تُتناقل الى هذا اليوم .
وقد اهتمت ندوة العلوم الفرنسية بهذه المسئلة وعينت لفحصها لجنة
مخصوصة سنة ١٨٥٣ فاعلنت بطلانها وقررت ان ما ذكر من حركة هذه
المخصرة لم يكن الا حركة عضلية واذا اتفق ان يصيب الرجل في معرفة
شيء من المغيبات فان ذلك لا يتعدى الاتفاق

وعليه فالريافيون او القناقن الذين لا يزال اناسٌ منهم الى اليوم يدلون
على مواضع المياه انما يعرفونها بالادلة الخارجية لا بايحاء المخصرة وانما
يستخدمون المخصرة بقصد الخرقه والتمويه على الجهال وذوي العقول السخيفة
لترويج بضاعتهم

اما تلك العلامات فهي على ما استقرأه بعض علماءهم كهيبولد وبرونيار
وبومون وأوشر وغيرهم ترجع الى اربعة امور نقلها في هذا الموضع افادة
للقرآء . اولها صوت حركة الماء في باطن الارض وذلك بان يُثقب في
الموضع الذي هو مظنة لوجود الماء وتوضع الاذن على الثقب او يؤخذ قمع
من الورق وتوضع فوهته الواسعة على الثقب ويدخل طرفه الدقيق في
الاذن فان كان هناك حركة مجرى قريب سُمع صوت هدير غائر . وينبغي
ان يكون هذا التسمع صباحاً او مساءً حين تكون الحركات هادئة . على
ان هذا الصوت انما يُسمع اذا كان ثمة ماءٌ جارٍ واما اذا كان الماء راكداً
فلا يسمع شيء بالضرورة ولذلك فاكثراً ما يُستدل بهذه الطريقة في الاراضي
الجبليه لان الماء هناك يكون على الغالب متحدراً

والثاني ذوبان الثلج في الاماكن التي يسقط فيها فان الموضع الذي

يكون تحته ماء يكون انحلال الثلج فيه سريعاً لان ذلك الموضع لمجاورته للماء واحتجاب الماء فيه عن الهواء المحيط يكون في درجة من الحرارة كدرجة الماء نفسه وبالتالي تكون درجة حرارته اعلى من درجة حرارة الهواء فيذب الثلج الساقط عليه قبل ان يذوب في غيره ولذلك لا يكاد الثلج يتراكم في مثل هذه الاماكن لانه لا يلبث بعد سقوطه حتى ينحل ويصير ماء

والثالث ظهور ابخرة تنبعث من الارض وتجمع البعوض ونحوه من الهوام الطيارة وذلك ان رطوبة الارض الباطنة اذا استصحبت من درجة الحرارة ما يذيب الثلج في اوان البرد فان تلك الحرارة يُستدل عليها في بقية الفصول بانتشار ابخرة ضعيفة تُرى صباحاً قبل طلوع الشمس او مساءً بعد مغيبها . ثم ان هذه المواضع تكون ولا بد في ايام الحر ابرد مما يجاورها فيقصد بها البعوض وغيره مما يطير بالقرب من وجه الارض هرباً من حرارة القيظ . على ان كلا الامرين يحدث ايضاً في المستنقعات ومواضع النز والغمق فينبغي ان تُفحص حالة الارض بحيث يعلم ان ليس فيها شيء من ذلك والا فليس ما ذكره دليل

والرابع وجود انواع خاصة من النبات وهي انبثة معروفة لا تعيش الا في الاماكن الدائمة الرطوبة من مثل الحلفاء والصفصاف والقرّة والنعناع والشقيق . لكن ينبغي ان يتحقق ان وجود الرطوبة هناك غير مسبب عن عدم ارتشاح المياه السطحية بان يوجد تحت الطبقة الظاهرة من الارض طبقة دلغانية او صلصالية تمسك ما فوقها من الرطوبة المائية لان هذه

الانبتة تكفيها الرطوبة القليلة ولذلك فقد توجد في الصحارى البعيدة عن
مضان الماء اذا كانت تربتها من مثل ذلك

وهناك دلائل آخر من نوع التربة وشكل الارض . فاما نوع التربة
فلا بد لتجمع الماء في جوف الارض من ان يفضي الى طبقة متماسكة
كالصلصال ونحوه من التراب التي لا ينفذها الماء فيستقر فوقها ويقاس بعده
عن سطح الارض ببعد تلك الطبقة . واما شكل الارض فمن المعلوم ان
المياه المستبطنة لها منساقه اليها من ظاهرها فينبغي ان ينظر الى اقرب
المواضع ظناً ان تكون المياه السطحية . قد انصرفت اليه فان كانت تلك
الارض سهلاً نُظر الى اسفل المواضع المطمئنة فيه لان مياه الامطار والسيول
لا بد ان تنتهي اليه وتغوص فيه وان كانت جبلاً او في جوار جبل نُظر
الى الاخاديد التي تحفرها السيول في سند الجبل اي في جانبه فحيثما التقى
اخدودان او اكثر عند حضيض الجبل او في قرار واد كان هناك مظنة
اجتماع المياه الشتوية وكلما كان موضع ملتقى الاخدودين ابعد عن منشأها
كانت المياه هناك اغزر وقد قدروا انه لا يوجد مجتمع ماء غزير على بعد
اقل من ٥٠٠ متر . على ان الجبال لا تخلو ان يكون احد جانبيها منبطحاً
والآخر قائماً والمياه قلما توجد الا فيما يلي الجانب المنبطح

هذا جل ما وقفنا عليه في هذا الصدد ولهم في كل ما ذكر تفاصيل
شتى امسكنا عن استيفائها في هذه العجالة حب الاختصار